الإسلام والعلمانية

مفهوم العلمانية

ظهرت نظريات سياسية كثيرة في عالم الغرب مصاحبة أو مقارنة لعصر النهضة، في ضوء المفاهيم الدينية السائدة لدى الغربيين في العصور الوسطى كالديمقراطية والعلمانية، أما العلمانية فهي تعني فصل الدين عن الدولة.

فما مصير هذا المصطلح في وقتنا المعاصر؟

زعموا أن أوربة قد فصلت الدين عن السياسة، وأنه لم يبق من يخلط الدين بالسياسة، ويجعل للحكومة صبغة دينية إلا المسلمون الذين لم ينظروا إلى ما حولهم من المحدثات العصرية التي من جملتها جعل الدين في واد، والسياسة في واد آخر. وراجت هذه الأغلوطة في الأوساط الإسلامية، وعلى رأس من روّجها مصطفى كمال أتاتورك رئيس جمهورية تركية، لسلخ تركية عن العقيدة الإسلامية واللغة العربية، وإلحاقها بعجلة الغرب، فأبطلوا المحاكم الشرعية، وألغوا العمل بالشريعة، وفرضوا لبس القبعة وسفور النساء، وجعلوا الكتابة بالحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية، لإقصاء الترك عن العرب، ولإقناع أوربة بأن تركية قد تفرنجت تماماً، وأنه صار من العدل أن تدخل في العائلة الأوربية، واستمرت المفاوضات إلى عهدنا الحاضر لقبول تركية في منظومة دول السوق الأوربية المشتركة، لكن هذه الدول وضعت ١٥٢ شرطاً؛ بعضها تعجيز وتنفير وسلخ للهوية لقبول تركية، وكل هذه المحاولات لإلغاء الشريعة الإسلامية من المحاكم كانت مرفوضة، وحينما زالت ظروف القهر والإكراه عن الشعب التركي ما عدا سلطة الجيش التركي في الحفاظ على العلمانية، عبَّر الأتراك بالأكثرية في الانتخابات الحرة مرتين عن تمسكهم

بالإسلام حتى صار رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء من أنصار التيار الإسلامي، وقال المتأملون بصراحة: «لقد زرعوا العلمانية فأنبتت الإسلام».

وكذلك الشأن في أوربة وأمريكة، حيث كان «فصل الدين عن السياسة خرافة»[١] واقتصر الفصل في مبدأ الأمر على أنه مجرد فصل إداري لا حقيقي، فلم تتخلَّ البلاد الأوربية عن المسيحية والتعصب لها، بل إنهم ظلوا متعصبين للمسيحية، وأمدوا بسخاء التبشير بالمسيحية في آسية وإفريقية ولا سيما بلاد المغرب العربي في مراكش والجزائر وتونس، حتى إن بلجيكة المتقدمة قررت تنصير أهالي الكونغو، والبابا قرر تنصير إفريقية، وكذلك هي سياسة التبشير في إندونيسية وبعض البلاد العربية كمصر والأردن ولبنان وسورية، حتى إن الدعم المباشر للأقليات المسيحية فيها في القضايا المختلفة هو قاعدة سياسية أصلية لا محيد عنها.

وبقيت كل الحكومات الغربية في أوربة وأمريكة مرتبطة إما بالكاثوليكية مثل بريطانية وفرنسة وإيطالية، أو بالبروتستانتية كأمريكة وبعض الدول الاسكندنافية وألمانية، أو بالأرثوذكسية كروسية، حتى إن الحكومة الفرنسية أعادت التعليم الديني للمدارس الأميرية الرسمية، لا في غيرها، والدول البروتستانتية كلها تعلن أن مدنيتها إنجيلية، ومنها هولندة التي هي من أشد هذه الدول تعصباً للمسيحية، ومثلها ألمانية.

وإيطالية التي هي أشد الدول حماية للنصرانية والكثلكة طلبت من ليبية - القذافي استرداد الكنائس التي بنيت في عهدها الاستعماري، وفرنسة أيضاً تعادي كل مظهر إسلامي لدى النساء فتمنع الحجاب والبرقع والجلباب في عهد ساركوزي في **٢٢**من يونيو/ حزيران **٢٠٠٩**م.

والحاصل: أن فصل الدين عن السياسة ليس معناه إهمال الدين، فجميع العالم المسيحي متمسك بالمسيحية، وليس في العالم سوى ثلاث حكومات

(١) فصل الدين عن الدولة، الأمير شكيب أرسلان: ص٢٤.

تناهض الدين باطناً وظاهراً وهي الجمهورية الحمراء الروسية سابقاً، والجمهورية الكمالية في أنقرة، وحكومة المكسيك[١]، وهذا كان في أواسط القرن العشرين، ثم تغير الحال في روسية ولا سيما بعد سقوط الشيوعية عام ١٩٨٩م، وكذا في تركية منذ ربع قرن تقريباً بنسبة معقولة، فصار المبدأ الديني فيها مع الدولة بعد استقرار الحكم الجمهوري توأمين حيث صدرت أوامر وقوانين تتعلق بأمور دينية محضة، ومثلهما المكسيك بعد انتهاء الخصام بين الكاثوليك ورجال الحكومة، وعاد الدين كما هو، كما في سائر البلاد الأمريكية[٢].

والحقيقة أن أوربة وأمريكة وجميع الأمم المنسوبة إليها باقية على نصرانيتها تماماً، لم يتغير شيء من صبغتها المسيحية، بل لم يتغير شيء من عقائدها الكنسية التي كانت عليها من قرون. والأوربيون يعلنون بأجمعهم أن ثقافتهم هي الثقافة المسيحية، وأن مدنيتهم هي المدنية المسيحية[٣]، ما عدا الحكومة البلشفية الروسية في العهد الشيوعي، وعادت الآن إلى زعامة المسيحية الأرثوذكسية.

معنى اللادينية

اللادينية هي منهاج للحياة يتجه نحو أهداف في حدود الحياة الدنيوية، لا مجال فيها للإيمان بما وراء العالم المادي، كالإيمان بالله، ولا تصور فيها لحياة أخرى بعد الموت.

واللاديني ينكر وجود الدين كمصدر للعقيدة والعلم، فكل ما نسميه عقيدة وقيماً خلقية إنما هي خرافات ابتدعها المجتمع أو التاريخ.

وفي مجال العلوم نجد أن اللادينيين يؤمنون بفصل العلوم عن الدين والقيم

(١) المرجع السابق: ص٧-٢٠.
(٢) المرجع نفسه: ص٢٢.
(٣) المرجع نفسه: ص٢٢.

الروحية والخلقية، ونشأت نظرية تدعو إلى فصل العلوم الاجتماعية عن القيم الأدبية، وفصل الأخلاق عن علم النفس، ومثلها فصل الفلسفة وعلم الحقوق وغيرهما من العلوم عن الدين والقيم الخلقية.

اللادينية أنتجت الأمراض النفسية والروحية في حياة الأفراد كالاكتئاب الشديد وقذارات الهيبيين، والانتحار والاضطراب والقلق، واللادينية تهبط بمستوى القيم الإنسانية من مستوى الإله إلى مستوى البشر، فالتعاليم التي تحرم قتل النفس وتدعو إلى تبادل الحب بين الناس، كل ذلك في نظر اللادينيين، لم يكن مصدره الوحي الإلهي، بل إنه ما يسمونه الحياة الاجتماعية الصرفة، من خلال التجارب التي مرت بها القرون الغابرة، ونتيجة لصراع المجتمع، لكن الواقع الذي لا ريب فيه أن الوحي الإلهي مصدر كل خير.

إن اللادينيين يرون نظرية وجود الله والأديان ليست إلا خرافة من نسج خيال الإنسان وابتداع المجتمع، ولا صلة له البتة بما نسميه الوحي، ومن ثم فإنهم يرون أن فكرة وجود الله إنما هي فكرة نسبية، أي إنها تتغير بتغير خيال الإنسان، وفي إمكانها أن تتحول من حالة إلى أخرى[1].

بين الإسلام والعلمانية

العلمانية تصور فكري هابط أفرزته نظريات الوجوديين والملحدين ومنهم الدهريون الذين كانوا يقولون كما عبر القرآن الكريم عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ﴾ [الجاثية: ٤٥/٢٤]. أي إنهم ينكرون وجود الله، فهم أسوأ من المشركين الذين يقرون بوجود الله، لكنهم لا يوحّدونه وإنما ينسبون له إلهاً آخر، فسُموا بالمشركين، وينكرون أيضاً الوحي الإلهي وما صاحبه من الإيمان بالرسل واليوم الآخر.

مع أن الوحي الإلهي خير محض للبشرية بصفته مصدراً للعقيدة والإيمان بالله

(١) سبيل الدين أو سبيل اللادينية: ص١٩-٢٥.

تعالى، وكونه أداة مهمة لإنهاء الصراع والاقتتال في هذا العالم، وأنه سبيل بقاء الحياة الإنسانية في الجملة، وإنْ صاحبها أحياناً شيء من الصراع والنزاع على المكاسب الدنيوية، وإثارة الفتنة والتورط بالقتل في حدود ضيقة جداً.

والوحي الإلهي ضرورة حتمية يحقق الشعور بالحاجة إلى الله تعالى، وإلى الحساب الأخروي لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإقامة برج العدالة المطلقة بين الناس في عالم الآخرة.

وهو أيضاً يتفق مع أبسط معطيات ومقتضيات العقل القائمة على نظرية السببية، فكل شيء موجود يحتاج إلى سبب موجود له، ومنظم لمسيرته ومسيرة النظام الكوني، مما يوجب كون مصدر هذا الوجود هو الله تعالى، وليس كما يزعمون الطبيعة المخلوقة العمياء والعاجزة ولا بالمصادفة التي لا ضمان لوجودها.

والعلم المادي الحديث بمكتشفاته ومنها غزو الفضاء والاطلاع على عالم السماء والأرض، يؤكد أن هذا العالم لا بد له من إله موجد، مدبِّر، ومسيِّر، ومنظِّم، كما أعلن أول رائد للفضاء وهو (جاجارين) الروسي.

ثم إن الوحي الإلهي أراح جميع الناس من التقلب في النظريات والفلسفات حتى وصلوا أخيراً إلى أقربها للصواب، لأنه بيان إلهي محكم، صادر عمن يعلم دقائق ومسيرة الكون كله، ويعلم بالمستقبل المتوقع على نحو حقيقي شامل.

كما أن هذا الوحي أراح أيضاً رجال السياسة والثقافة والاقتصاد والاجتماع والتربية من وضع الخطط والاستراتيجيات لتحقيق مصلحة شعوبهم.

ولا بد لكل إنسان من الإيمان بالغيبيات لأن عقله محدود وناقص، والإيمان بالله سبحانه يفيد جميع المجتمعات، فهو يفيد المجتمع الزراعي، لأن ما قد تتعرض له الزراعة من نماء وآفات ومخاطر واحتمالات وأحداث وأمطار ورياح أمور مجهولة، تسيطر على الحياة، فإحسان الظن بالله يحقق مطمح المزارعين الذين يحسون في قرارة أنفسهم أن هناك إلهاً مهيمناً تتوقف عليه جهودهم، فكل

فلاح مثلاً يتمنى نزول الأمطار، فيدعو لتحقيق أمنيته، وكذلك لا بد من أن يدعو لحماية زراعته من الآفات، والله سميع مجيب ورحيم، فالإنسان الذي يعيش على الزراعة بحاجة إلى الله تعالى.

وكذلك المجتمع الصناعي وما يتطلب من توفيق الله للصانع والمهندس من اختراع الأصح والأقوى والأحكم هو أيضاً بحاجة إلى الله تعالى، كما هو بحاجة إلى إلهام البشرية من اقتناء المنتجات، وإلا أصيب بالإفلاس والخسران.

وكذلك فلاسفة السياسة منذ عصر أفلاطون إلى عصرنا وفي كل عصر يرون ضرورة التمسك بأهداب الدين، ورفض اللادينية في بناء الدولة، لأن السلطة المطلقة لله تعالى، ولأن انضباط الأمور ومنع الفوضى، ووجود ظواهر سيئة في المجتمع، وانحطاط قيم الحياة، ومخالفة الحكام، وإحباط خططهم بأساليب ملتوية، تجعل السلطة الحاكمة مضطربة، وتؤدي إلى انتشار المفاسد والمؤامرات ونزعة الإلحاد، فالمجتمع الصناعي أحوج إلى الإيمان بالله من المجتمع الزراعي.

وكذلك النجاح في مختلف العلوم ودرجات التعليم يتوقف على الإيمان بالله، لتوجيه معطيات العلم إلى الحق والخير والسلام والوئام والاطمئنان، ومنع المضار والشرور والمساوئ، لأن كل شيء يحتاج لتوفيق الله واستدامة إلهاماته وعطاءاته، وضمان المستقبل الأفضل.

فلا بد من اختيار سبيل الدين الأقوم، أما سبيل اللادينية أو الإلحاد فلا يمكنها أن تعطي أساساً راسخاً لحياة المجتمع، بل إنها تقوض أسس حياة الأفراد والجماعات[1].

ميزة الدين في شؤون الحياة

الدين هو عقيدة ونظام، منها الإيمان بالله بصفته مصدراً للحكم وقيم الحياة،

(١) المرجع السابق: ص٣١-٣٧.

والإيمان بالوحي المنزل على الرسول، والإيمان بوجود صلة بين العبد وربه وبأن هذه الصلة تؤثر في حياة الأفراد، والإيمان بوجود حياة أخرى بعد الممات، والإيمان بأن العبادات هي وسيلة التقرب إلى الله، وأنها منطلق الحياة الخيرة، وضبط النفس، واحترام الأنظمة، والتفاني في أداء الواجب واحترام الوقت، وأداء الأمانة، والصدق في القول والعمل... إلخ.

إن ميزة الدين عن غيره من النظم اللادينية تظهر فيما يأتي[١]:

أولاً: إن الدين قوة دافعة مكينة تدفع للتغلغل في العلوم والحقائق، أما النظم اللادينية فتنحصر في ثلاثة أسس فكرية، وهي التجريبية، والعقلية، والبداهية، أما أساس الوحي والدين فهو أوسع من ذلك بكثير، فهو يعترف بجميع تلك الأسس ويضيف إليها تقدير معطيات الغيب، والتزام القيم، وتحديد الأساليب الواقية، ودرء المخاطر عن الإنسان والمجتمع والبشرية كلها.

ثانياً: إن الدين يشمل جميع نواحي الحياة ويوجِّه حياة الإنسان نحو الأفضل بمختلف النواحي الفكرية والعاطفية والعملية ونحوها.

أما اللادينية من دعاة الماركسية والداروينية فلا تجد فيها تعليلاً لما يتعلق بالصراع النفسي، لأنهم ينظرون إلى الحياة من زاوية تطور الطبيعة فقط، ومن ثم فإنهم ينظرون إلى الإنسان بصفته مجموعاً، ولا ينظرون إليه بصفته فرداً ذا خصائص معينة. والدين يملك القدرة على تحريك نزعات نفس الإنسان، فيختلف كثيراً عن الفلسفة، لأن القوى الباطنية في كل إنسان هي ميزة الدين، لتركها آثاراً لا تمحى في النفس الإنسانية.

وإن صلة المؤمن بالله تجعله أكثر صموداً وصبراً في تحمل المحن والعقبات، بل في قهرها واجتيازها لما هو الأسلم عاقبة[٢].

(١) المرجع السابق: ص٣٨-٤١.

(٢) المرجع السابق: ص٣٨-٤١.

هل الدولة الإسلامية دولة ثيوقراطية؟

الثيوقراطية تعني تحكم طائفة من رجال الدين في نظام الدولة، زاعمين بأنهم وكلاء الله على الأرض، وأن سلطة الدولة تنبع من أنها تحكم بمقتضى حق التفويض الإلهي للأباطرة.

أما الدولة الإسلامية فليست ثيوقراطية، فلا يدَّعي الحاكم بحق أصلاً التفويض الإلهي له في تسيير الأمور، وإنما الدولة الإسلامية هي دولة ديمقراطية، ليست علمانية أو لادينية، وإنما تتقيد بموجب النظام في أسسه العامة، وتعتمد على الشورى في إدارة الدولة، وتلتزم بالحرية والمساواة بين الناس جميعاً، فلا امتيازات لأحد، ولا استبداد لأحد، ولا مصادرة لحرية أحد، ما دام يحترم حريات الآخرين، ويتقيد بأصول النظام[١].

إن مقوِّمات نظام الدولة الإسلامية تعتمد على مكارم الأخلاق، لقول نبي الإسلام ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٢] أي الفضائل العليا ومن أجل صلاح الدنيا والدين والمعاد.

وفي قمة الأخلاق روح التعاون، لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٥/ ٢].

والشعور المتنامي برابطة الأخوة الإيمانية لقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٠].

وكذلك التعاون والتعارف مع البشرية فيما يحقق لها الخير ويدرأ عنها الشر، لقوله عز وجل: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣] وأيضاً حب الإيثار ومقت الأثرة (الأنانية) لقوله تعالى: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٩].

---

(١) المرجع السابق: ص ٥١-٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة بلفظ: (صالح الأخلاق) أو (مكارم الأخلاق).

وكذلك تزكية روح الوطنية، لأن حب الوطن من الإيمان، وبناء صرح الوطن ضرورة مصيرية وحتمية، من أجل خير الكل وإسعاد الأمة.

ويرفض الإسلام الوطنية العنصرية أو القومية المتطرفة، لأنها تزرع في النفوس بذور الكبرياء، وتنمي العصبية الجنسية الممقوتة، والعنصرية البغيضة، فيشعر الناس وزعماؤهم أنهم أرفع وأسمى من الشعوب الأخرى.

إن الإسلام يعشق الحرية والاستقلال ويرفض التسلط والاستعمار، ويقمع كل أشكال الظلم والاستعباد والتدخل الأجنبي، ويحرِّك النفوس نحو ملازمة الجهاد وممارسة حق المقاومة والثورة ضد الاستعمار، لقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٩].

إن الإسلام يرفع من قدر الحرية إلى مكان عال، ولا سيما الحرية الدينية وحرية الرأي والتعبير، ليعيش الناس آمنين منسجمين مع متطلبات العقل والإقناع.

الإسلام يقرّ مبدأ الملكية الفردية، لأن الإنسان مفطور على حب التملك، ويرعى أيضاً مبدأ الملكية الجماعية المشتركة، لتحقيق المصلحة العامة، ومحاربة التعصب، بل وضع المسؤولية على عاتق المسلم في الدفاع عن حرية التدين.

ويلتزم الإسلام بخلق الرحمة والإحسان والعدل، وقمع الظلم، لإنقاذ الجماعة والبشرية من مهاوي السقوط والانحراف، والسخط والتبرم، واستبداد القلق وإشاعة الاضطراب.

الإسلام وضع أساساً راسخاً في بناء القيم العليا والتسامح الإيجابي، وتنمية روح التسامح الديني في كل مكان.

والخلاصة: إن الإسلام يعصم النفس من الانزلاق في مهاوي الأهواء والشهوات وحظوظ النفس الأمارة بالسوء، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠١].

وإذا أردنا المقارنة أو الموازنة بين المجتمعات، فإننا نجد أن المجتمع الديني مجتمع آمن، مستقر، قوي، موحد، معافى من ألوان الاضطراب والانقسام والأمراض الاجتماعية الكثيرة، أما المجتمع اللاديني فهو مجتمع ضعيف كئيب، ممزّق في الداخل النفسي والاجتماعي، ولم تستمر العلمانية قائمة على منهجها، وإنما عاد أنصارها طوعاً أو كرهاً إلى الإقرار بأهمية الدين، ورعاية متطلباته، والحفاظ عليه، وموالاة أنصاره.

وهل يستطيع إنسان في العالم كله التشكيك في معطيات الإسلام الخالدة، وحضارته اليانعة، وأساليبه في بناء الحياة العامة والخاصة؟

وإذا كانت العلمانية هي منهجية الخطاب الغربي حول السياسة والحضارة والأخلاق والاجتماع، فهي مشروطة بحالة تاريخية وحضارية تنتمي لدورة تاريخية مغايرة، هذه الدورة لم يعرفها تاريخ الحضارة الإسلامية إلا بعد سقوط الخلافة في تركية، حيث شهدت لوناً من ألوان الانفصال بين الدين والنشاط الحضاري، وذلك أثر من آثار الاستعمار الغربي، وفي النهاية استطاع الفكر الإسلامي أن يصمد في مواجهة الهيمنة الثقافية[1].

(١) الحوار مع الغرب، أ-د: سلمان الخطيب: ص١٩٧، ٢٠١.

obeikandl.com